

صورة... .

صديقي «شوكت» هذا لأراه إلا لماما ، وكيف أظفر به وهو لا يتقطع ثققله واضطرابه . . . أبواب يدللته ويرهبانه ، وهو يفرّ منهما ليقيم وحده في غرفة صغيرة على سطح الدار ، يستيقظ مع الشمس فيندس في ثيابه ، ثم يتدهور على الدرج كأنه نجاسة تركها أقدام طاهرة . . . حتى إذا خرج إلى الطريق خفّ خطوه وبدأ تسكمه . . . وعندئذ لا مفرّ من أن نودعه — وإن كانت الساعة لا تزال مبكرة — فهيات للمخيلة أو للمنطق أن يفلح في تتبعه بعد ذلك ولو كنت به خبيراً . . . فهو قد يظفر فولاً وطعمية في سيدنا الحسين ، أو بيضاً مسلوقاً ولحماً بارداً في مطعم بجوار المحكمة المختلطة . هو يدخل السينا لينام ، وقد يقضى أكثر الليل ساهراً في مقعد على شطّ النيل .

استمع إليه يحدثني ذات يوم : —

— اننى أعلم كثيراً من دراسة معارض المصورين الفوتوغرافيين ، وأقف ساعات أمام سكانها المجهولين أقرس وجوههم طويلا . وهذا دأبى منذ زمن بعيد . . . دع عنك مصورى البطاقات الشخصية ، فعملهم نوع من التأتأة . . . ولا أقصد مصورى الأحياء الإفرنجية ، فليس بينى وبين معارضهم وشيجة روحية ، وخاصة في هذه الأيام التى أصبحت فيها كأنها ثكنات جنود . . . أما المصريون الذين يظهرون فيها بزيّ رسمى أو غير رسمى فأغلب وقفاتهم متكلفة : على الشفاه ابتسامة حائرة بين فرجة الفوز والاعتذار من الغرور . هؤلاء أناس قد تمرنت أقدامهم وأيديهم لطول بطالتها . . . أما أصدقائى فهم زبائن مصورى الأحياء الوطنية . كنت أعرفهم فيما مضى يشخصون بأبصارهم إلى العدسة ويحتملون فيها كأنما يتوقعون منها مفاجأة . . . أذرعهم متصلبة ، وأيديهم حائرة ، فهى إما مستقرّة على الركبتين ، أصابعها تارة منفرجة وتارة مضمومة ، أو ملصقة بأنحاذهم وأصابعها ممدودة كوقفة صاحب الحلة الجديدة أمام الخياط فى

أول تجربة . إثبات الود بين الصديقين أن يتصالحا أمام العدسة ، وبعضهم يرفع يده إلى رأسه يحميك أنتَ والمصورَ والعالم كله . . . أما الفتيات فكالنباتات البرية لا تزال بشوكها . لا تضحك من أحذيتن أو لتسريحة شعرهن ، بل انظر إلى الميون تجذلا فطريا وفرحة الطفل بلعبة جديدة . أما إذا اعتمدت إحداهن برأسها على كفها فوق المائدة ، وتاهت نظرتها ، ومن خلفها ستار عليه رسم زهرية كبيرة أودرج نغم ، فأعلم أنها بنت مدارس ابتليت — والبركة في القصص الغرامية — بداء الحب . . . كان ذلك فيما مضى . أما اليوم فقد كثر بين أصدقائي من يقلد كلارك جيبيل أو بيتي جربيل . . . بعض هؤلاء الناس يثبتون في أماكنهم لا يتحولون عنها ، يوجهون إليك نفس النظرة سنين طويلة — كأنهم قطع متخف ، وبعضهم — كما في عالم الأحياء — يظهر حيناً ثم يختفي ويحل غيره محله . وهذا يذكرني بمحادثة محببة لم أستطع نسيانها إلى اليوم .

صمت شوكت ، وقد تعلمت ألا أستدرجه ، فصبرت حتى واصل الحديث فهو ممن لا يطبقون كتان السر ، ولو كان أمراً يشينه . . .

هو مصور في ميدان من أهم ميادين القاهرة ، كل زبائنه من الأغنياء ، لا يتم لهم عرس إلا إذا جاءهم قبل المأذون ، وكأنهم لا يثبتون من معرفة أطفالهم إلا إذا رسمهم لهم . . . كنت أسير غير ملق بالي إليه ، وإذا بشيء يجذبني جذباً وقد التفت فسحرتني نظرة نفاذة كأنها تيار كهربائي ، تنطلق من عيني فتاة جميلة ، ارتدت — ولا أدري لماذا — خماراً أسود . هل يكون تصنع الحزن من بعض الدلال ؟ ومع ذلك هيهات ! فالنظرة تنطق بالصبا المتلطف إلى اللذة والمرح والبهجة ، يوجهه جسد زاخر بالحياة ، يسكنه عفريت لعوب . تتموج على الشفاه ابتسامة كاهتراز أوراق الشجر يداعبها نسيم الغروب . سرت قليلاً ثم وجدتنى أعود إليها ماذا تريد مني ؟ وماذا تريد أن تقول ؟ لم أستطع الانفكاك من سحر تلك النظرة ، ومع ذلك أحسست في جسدي بشعور خفي لم أتبينه حينذاك ولكنه تركني ضيق الصدر مكروباً . مالي وما لها ؟ هي فتاة مغرورة تقاهى بجمالها وبصورتها الفخمة ، تريد أن تخلد فيها خيال مرآتها القاني . ولكن لا ! إنها ليست نظرة موجهة إلى نفسها ، بل هي موجهة إلى غيرها ، إلى إنسان ، أيأ كان .

أصبحت أقصدها وأقف عندها ولا أمرت في ذلك الطريق إلا سلمت عليها

وسألها عن أخبارها . إن نشوتها تبرد القلب ، وسعادة الصبا تقلم أظفار الحسد وإن رغم أنفه ، وتقلب حسرة الشيوخ رضا وذكريات وأحلاما . . . ومررت أيام وأنا أتوقع أن أراها ، كما رأيت كثيرات غيرها ، مستندة على ذراع عروسها في ثوب أبيض ، له ذيل طويل طويل . انتظرت ظهور هذه الصورة أياماً بعد أيام ولكن سدى . . . وظلت فظرتها ثب من وراء الألواح الزجاجية وتختلط بالمارّة كأنها تريد أن تتشبث بإنسان من الناس .

ثم اختفت . وكرت الأسابيع والشهور ، فإذا بي أجدها من جديد . مرحباً مرحباً ! ولكن ما هذا ؟ خلعت ثمارها فبدأ لها شعر أسود فاحم في أجل زينة . وارتدت ثوباً وسطاً بين ثياب السهرة وثياب النهار ، حول عنقها عقد تعدد المصوّر أن يظل واسطته لثلاثا تبيينها العين ، بل تدرك أنها ثاوية بين مهبها ويلتصق بأذنها قرط على شكل زهرة . إنها اليوم لا تنظر إلى المارّة . بل ابصرفت عنهم قليلا ، فهي تريد ولا تريد أن تقع العين على العين وكفها أذنها التي مالت بها قليلا نحونا كأنها تريد هذه المرة أن تسمع ما نقوله عنها ، قد لوتحتها الشمس — فقد كنا في نهاية الصيف — وكأنها تسر إليك : « إنني كنت على الشاطئ ، ثم عدت إلى القاهرة » تطلعت إلى الصورة من اليمين ومن اليسار لعلى أظفر بنظرتها التي سحرتني فلم أفلح . ماذا دهاك ؟ ولم تشيحين بوجهك ؟ وثبتت الصورة مكانها رمتاً طويلا ، من حولها جيرانها وعالم المارّة وموكب الحياة يدور ويدور كأنه رحي طاحون .

وتتابعتم الفصول . . .

استدارت وارتدت ثوب سهرة يكشف عن واسطة العقد ومثواها مما . وتركت شعرها ينسدل على كتفيها وواجهتنا من جديد بنظرة فيها تحدّ واعتداد وكبرياء وشموخ . العين مزججة بالكحل ، والشفة أرجوانية بل سوداء ، وكأنها ندية . . . لما رأيتها تلك المرة أدركت الشعور الذي اتفاني حين لقيتها اول ما لقيتها . يا لله لهذا الفم ولتلك النيايا . . . فم واسع عريض ، كأنه ممددة بئر مهجور . . . وشفتان غليظتان تكشفان عن تنابض مفلحة أى شيء لا يقدر عليه هذا الفم المتعطش من لثم وتقبيل وما يتلوها من ثورات عنيفة لا أريدك بها علماً . شهوة عارمة جامحة ، مقيدة بأغلال . تذكرت . لقد شعر جسدي حين لقيتها أول مرة بذلك الإحساس الذي كان يعتريني وأباصي ، عند ما كنت أمر

على بعض الأرزقة فأبصر بالأمات الهوى يعرضن أجسادهن للناس . كنت أعزق :
يدفعني الشوق ، و رغبة الافضاء ، والقوص في لجة الحياة ، وتصدني دمامة الفساد
يبخرها وتنتها وقروحها ، لقد كان القبح مجسماً جاثماً على فم هذه الفتاة . قبحٌ يشير
في النفس اشمزازها ، ويهب عليها منه ريح حارة كالسموم . عندئذ عزمت على
الفرار منها ، وهجرها وعلى أن لا أعود إليها .

* * *

ومرت أيام في أثرها أيام . . . ثم لقيت صديقي شوكت مصادفة على فهوة في
شارع عماد الدين ، وأمامه حبات قليلة من الفستق ، هي كل ما كسبه بثلاثين
قرشاً دفعها في مراهنة بالتح صديدي مكار . وقال لي :
— اننى لا أخسر إلا إذا كنت مضطرب الأعصاب ، ولا تأس على . فقد
كسبت منه مرة أفة كاملة بقرش واحد . نخذ اثنتين ، ودع لي اثنتين ، وأرجوك
ألا تلح على أن أسير معك فليست الليلة خالي البال . لقد كنت أ كذب عليك ،
وإني أخبرك الآن أنني عدت إليها . أ يكون للقبح سحره أيضاً لأنه يجعلنا —
إذا ما انقضى — أكثر قدرة على تذوق الجمال ؟ أم لعل القبح هو مبدأ
الخليقة التي فرض عليها أن ترقى منه — بمجهودها — قليلاً قليلاً حتى تدرك
الجمال . فسحر القبح نوع من الحنين إلى الماضي . ولكن حالي مع هذه الفتاة
على خلاف ذلك . فلا يحنى وجهها ، إن الذى يعينى هو روحها . إنها لا تزال
مكانها ، تمر أمامها هذه الجموع الغفيرة وليس فيها قلب واحد فهم آلامها
ورثى لها . إننى ألس عذابها ولياليها الساهرة ، وابتساماتها التكلفة تتظاهر
فيها بالسرور وقلبي مغموم . هي يد ممدودة لا تجد من يمد لها يداً . صدقنى .
إننى أمرٌ عليها فأجد نور عينيها ينطق يوماً بعد يوم كاحتضار المشكاة . ستقول
إن الصور تشحب عادةً من طول تعرضها لأشعة الشمس ، ولكن اذهب
بنفسك وشاهدها تجدها وحدها دون بقية الصور قد خيست عليها ظلال
كالعنكبوت ، بل أكاد ألمح على وجهها خطين متعارضين كأنهما لطمتان ، أو
علامة الإلغاء على مسألة مغلوطة . . . ستقول أيضاً إن هذا من أثر ثنى ورق
الصورة لقدم عهده بالمعرض . ولكن ثق أن قلبى صادق في شعوره . بل إننى
أكاد أجزم باقترابها من كارثة نازلة . ولو ذهبت إلى رجال الإسعاف وقلت

لم : « اسرعوا ! نعالوا أدركوا فتاة دهمها خطر شديد ، فقد أصيب قلبها بجرح بليغ وتوشك أن تتحطم ، فمساكم تنقذونها كما تنقذون غيرها ، لسخروا منى وعدوني محبولا . . . وانصرفوا عني أنا أيضاً فليس للخبل عندهم دواء . وكانت قصة رهاص صديقي قد ذاعت ، فتألب علينا بالعو السميد والفسق واليانصيب وماسحو الأحذية والشحاذون فانقطع الحديث .

* * *

و ذات ليلة من ليالى الشتاء الماضى عدت إلى دارى متأخراً ، فوجدت « شوكت » بالباب ينتظرنى ، لا يايه للبرد ولا للطر . ولم يكديرانى حتى صرخ فى قائلا :
— أين كنت ؟ لقد بحثت عنك طويلا . إننى أريدك معى هذه الليلة . لا تتركنى .

هو مخمور ، لسانه ثقيل ، وعينه محمرتان .
— لقد رأيتها اليوم فى ذهابى إلى القهوة ، وأقسم لك أن نظرتها أصبحت أشد لمعانا كأنها نصل خنجر . . . وارتسم فيها الغل والغيظ والقنوط والألم معاً . . . تتلفت إلى المارة ، وإلى جيرانها بنظرة ملؤها السخط والاحتقار . انشعبت الظلال ، وزال الخطان وتهبأت لأمر ، قد أطبقت أجفانها قليلا وضمت شفيتها وبدأ على خديها عضون عميقة . . . ثم عدت بعد ساعتين فألقيت أمام المعرض زحاما شديدا ، والزجاج مهشما متناثرا ، والصور ممزقة تحت الأقدام فى الوحل . . . بحثت بينها عن صورتها فلم أجدها . . . قال لى بأعجرائه إنه سمع صوت تكسر الزجاج كأنما أصابته رصاصة . ولم ير أحد شيئا . وقالوا لعله جندى عرييد قذفه بزجاجة حمر . ولكن هذا كلام لا يدخل عقلى . . . إن هاتفاً يهتف بى أن هذه الفتاة قد اتهمت . . . سقطت أو انتحرت . وأن قلبها قد حطم أغلاله وانفجر .

بمى منى